ظَرْف الفقهاء

[مهداة إلى الأستاذ على الطنطاوى]

للأستاذ على العماري

تحدث الأستاذ على الطنطاوى فى مقالين سابقين نشرهما فى مجلة الرسالة عن غزل الفقهاء : وقد أوحى بهما إليه جدل كان بينه وبين أحد المتزمتين الذين ينكرون على العالم أن يطرب ويهتز، ويرون أن من واجب العالم أن يترفع عن الشعر وعبثه . وقد أفاض الأستاذ الطنطاوى — كعادته — فذكر كثيراً من شعر الفقهاء فى الغزل ، ونشر صحائف طيبة من حيوات هؤلاء العلماء الفضلاء .

وقد رأيت أن لهؤلاء ناحية جديرة بأن يتأملها مثل هذا الرجل الذى يحرم طيبات الفكر على العلماء !

تلك هى ناحية « الظرف » . فقد كان كثير من الفقهاء على جلالة أقدارهم ، وسمو منازلهم، يهتزون للشعر ، وتأخذهم الأريحية عند سماعه ؛ وربما صدرت عنهم أشعار فكهة رائعة .

ولعل خير ما نهديه لمثل هذا الرجل هذه القصة :

كان القاسم بن سلام رحمه الله إمام أهل عصره فى كل فن من العلم ، وكانوا يعدونه أعلم من ابن حنبل والشافعى مع دين وورع ، وقد جاءه رجل فسأله عن الرباب فقال هو الذى يتدلى دون السحاب ، وأنشد لعبد الرحمن بن حسان :

كأن الرباب دوين السحاب نعام تعلق بالأرجل

فقال الرجل لم أرد هذا فقال : الرباب اسم امرأة وأنشد :

إن الذى قسم الملاحة بيننا وكسا وجوه الغانيات جمالا
وهب الملاحة للرباب وزادها فى الوجه من بعد الملاحة خالا

فقال لم أرد هذا أيضاً ، فقال لعلك أردت قول الشاعر :

ربابة ربة البيت تصب الخل فى الزيت

فقال هذا أردت . قال له القاسم من أين أنت ؟ قال من البصرة قال كم أعطيت للملاح ؟ قال : أربعة دراهم . قال : اذهب استرجع منه ما أعطيته وقل له : لم تحمل شيئاً فعلام تأخذ الأجرة[1] ؟ !

(١) معجم الأدباء ج ١٦ ص ٢٥٩ طبعه دار المأمون

فهذا كلام له وزنه فى تقدير الرجال ؛ وهو جدير بأن نوجهه إلى كل رجل ينكر قيمة الشعر ، ويتنقص محاسنه .

وإن المتصفح لتراجم العلماء ليرى فيها نفحات أدبية ، ولطائف شعرية ، تروع وتعجب ، ولا يمكن لمثلى فى هذا المقام أن يستقصى ، وإنما هى نماذج أنشرها وفيها غناء .

كان أبو حازم الأعرج من فضلاء التابعين ، وله فى الزهد والورع أخبار وأحاديث ، وقد خرج يوما يرمى الجمار فإذا هو بامرأة حاسر قد فتنت الناس بحسن وجهها وألهتهم بجمالها ، فقال لها : يا هذه ، إنك بشعر حرام وقد فتنت الناس وشغلتهم عن مناسكهم فاتقى الله واستترى ، فإن الله عز وجل يقول فى كتابه العزيز (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) فقالت : إنى من اللائى قيل فيهن :

أماطت كساء الخز عن حر وجهها وألقت على المتنين برداً مهلهلا
من اللاءلم يحججن يبغين حسبة ولكن ليقتلن البرىء المغفلا

فقال أبو حازم لأصحابه : تعالوا ندع الله لهذه الصورة الحسنة أن لا يعذبها الله بالنار . فجعل أبو حازم يدعو وأصحابه يؤمنون ، فبلغ ذلك الشعبى فقال : ما أرقكم يا أهل الحجاز وأظرفكم ! ! أما والله لو كان من قرى العراق لقال اغربى عليك لعنة الله[1]

وهكذا تأخذ الأريحية هذا العابد المتزهد فيكون مثلا فى رقة العاطفة وتقدير الجمال ؛ فهو لم ينسك نسكا أعجميا ، ولا جفا طبعه وغلظ حسه فينغمض عينيه ويسد أذنيه دون هذه البدائع .

وربما بلغ الشعر ببعض الفقهاء إلى أكثر مما نتخيله ، ولكنها سجاحة النفس ، وقوة تأثير الشعر فيها ، قال أصحاب القاضى محمد بن عيسى الأندلسى : ركبنا لبعض الأمر فى موكب حافل من وجوه الناس إذ عرض لنا فتى متأدب قد خرج من بعض الأزقة سكران يتمايل ؛ فلما رأى القاضى هابه وأراد الانصراف ، فخانته رجلاه واستند إلى الحائط وأطرق . فلما قرب القاضى منه رفع رأسه وانشأ يقول :

ألا أيها القاضى الذى عم فضله فأضحى به فى العالمين فريدا
قرأت كتاب الله تسعين مرة فلم أر فيه للشراب حدودا
فإن شئت أن تجلد فدونك منكبا صبوراً على ريب الزمان جليدا
وإن شئت أن تعفو تكن لك منة تروح بها فى العالمين فريدا
وإن أنت تختار الحديد فأن لى لسانا على مر الزمان حديدا

(١) زهر الآداب ج ١ ص ٢١٠ (المطبعة الرحمانية)

فلما سمع القاضي شعره وميز أديبه أعرض عنه وترك الإنكار عليه ومضى لشأنه[1]

وقد ذكر صاحب نفح الطيب طرفة أخرى لهذا القاضي الذي عم فضله قال : خرج القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى إلى حضور جنازة ، وكان لرجل من إخوانه منزل يقرب من مقبرة قريش فعزم عليه في الميل إليه فنزل وأحضر له طعاما وغنت له جارية

طابت بطيب لثامك الأقداح وزها بحمرة وجهك التفاح
وإذا الربيع تنسمت أرواحه نمت بعرف نسيمك الأرواح
وإذا الحنادس ألبست ظلماؤها فضياء وجهك في الدجى مصباح

فكتبها القاضي طربا على ظهر يده . قال الراوي : فلقد رأيته يكبر على الجنازة والأبيات على ظهر يده[2]

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فقد حدث الأصمعي قال أنشدت محمد بن عمران قاضي المدينة وكان أعقل من رأيته :

يا أيها السائل عن منزلي نزلت في الخان على نفسي
يغدو على الخبز من خابز لا يقبل الرهن ولا ينسى
آكل من كيسي ومن كسرتي حتى لقد أوجعني ضرسي

فقال : اكتب لي هذه الأبيات ، فقلت أصلحك الله هذا لا يشبه مثلك وإنما يروى مثل هذا الأحداث قال : اكتبها فالأشراف تعجبهم الملح[3].

على أن أجمل ما في هذا الباب هذه القصيدة الفكهة الرائعة التي نظمها قاضي الجماعة بغرناطة ، وكان على جانب عظيم من الفقه والدين ، وقد صرفها في أغراض كثيرة من الدعابة والظرف فجاءت تحفة رائعة زاد في روعتها وزنها وقافيتها ، ذكرها المقري فقال : ومن عجون الأندلسيين هذه القصيدة المنسوبة لسيدي أبي عبد الله بن الأزرق وأثبتها كاملة في كتابه النفح وهي ستة وتسعون بيتا ابتدأها القاضي فقال :

عِمْ بانتصال الزمن ولا تبال بمن

ثم شبب فيها فأحسن إلى أن قال :

لا أم لي لا أم لي إن لم أرد شجني
وأخلفنّ في المجـ ـون والتصابي رسني

(١) مطمح الأنفس
(٢) ج ٢ ص ٩٦٨
(٣) زهر الآداب ج ١ ص ٢٠١

وأخذ ينصح صاحبه باتباع نهجه ، والسير على سننه ، وإلا فهو أحمق مائق .

وإن تسفه نظري ومذهبي وديدني
فالصفع تستوجبه نعم ونتف الذقن

وجرى ملء عنانه يمزح ويعجن حتى التفت إلى الماضي فبكى عليه وتحسر على أيامه ولياليه .

أفدي صديقا كان لي بنفسه يسعدني
فتارة أنصحه وتارة ينصحني
وتارة ألعنه وتارة يلعنني
وربما أصفعه وربما يصفعني
دهر تولى وانقضى عني كطيف الوسن
يا ليت هذا كله فيما مضى لم يكن

وقد يجد ويقوى ويأتي بالمعنى الفحل ، واللفظ المتين .

كأنني ولست أدـ ـري الآن ما كأنني
والله ما التشبيه عنـ ـد شاعر بهين

ثم أخذ في تعداد الأطعمة التي يتشهاها بشعر سافر لا مواربة فيه ولا التواء .

هل للثريد عودة إلى قد شوقني
تغوص فيه أنملي غوص الأكول المحسن

وبعد أن أفاض في هذا إفاضة مليحة أخذ يخاطب صاحبه :

إيه خليلي هذه مطاعم لكنني
أعجب من ريقك إذ يسيل فوق الذقن
هل نلت منها شبعا فذكرها أشبعني
وإن تكن جوعان يا صاح فكل بالإذن
فليس عند شاعر غير كلام الألسن
يصور الأشياء وهي أبداً لم تكن
فقوله يريك ما ليس يرى بالمكن[1]

وأظن أننا بعد هذه النماذج في حل بأن نسوق إلى هؤلاء الذين يحرمون علينا طيبات القرائح، وثمرات الأدب، هذا الذي روى عن شيخ من شيوخ قريش وسادتها ، فقد سئل أبو السائب المخزومي : أترى أحدا لا يشتهي النسيب ؟ فقال : أما ممن يؤمن بالله واليوم الآخر فلا .

علي العماري
المدرس بالأزهر

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٨٣٤